

فصل

في الأخذ والسرقة وما في ذلك من التعليل وضروب الحقيقة والتخييل

(القسم العقلي)

اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق، واقتدى بمن تقدم وسبق، لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحاً أو في صيغة تتعلق بالعبارة ويجب أن نتكلم أولاً على المعاني، وهي تنقسم أولاً إلى قسمين: عقلي وتخييلي، وكل واحد منهما يتنوع. فالذي هو العقلي على أنواع، أولها عقلي صحيح، مجراه في الشعر والكتابة، والبيان والخطابة، مجرى الأدلة التي تستنبطها العقلاء، والفوائد التي تثيرها الحكماء، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعا من أحاديث النبي ﷺ وكلام الصحابة رضي الله عنهم ومنقولا من آثار السلف الذين شأنهم الصدق، وقصدهم الحق. أو ترى له أصلا في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء. فقله:

وما الحب الموروث لا دردره بمحسب إلا بأخر مكتسب
ونظائره كقوله:

إني وإن كنت ابن سيد عامر وفي السر منها والصريح المذهب
فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

معنى^(١) صريح محض يشهد له العقل بالصحة، ويعطيه من نفسه أكرم النسبة^(٢)، وتتفق العقلاء على الأخذ به، والحكم بموجبه، في كل جيل وأمة، ويوجد له أصل في كل لسان ولغة، وأعلى مناسبة وأنورها، وأجلها وأفخرها، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: 13] وقول النبي ﷺ: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(٣) وقوله عليه السلام: «يا بني هاشم لا تجيئني الناس بالأعمال وتجيئوني بالأنساب»^(٤) وذلك أنه لو كانت القضية على ظاهر يغتر به الجاهل ويعتمده المنقوص لأدى ذلك إلى إبطال النب أيضاً وإحالة التكثر به، والرجوع إلى شرفه، فإن الأول لو عدم الفضائل المكتسبة، والمساعي الشريفة^(٥) ولم يبين من أهل زمانه بأفعال تؤثر، ومناقب تدون وتسطر، لما كان أولاً ولكان العلم من أمره مجهلاً، ولما تصور افتخار الثاني بالانتماء إليه، وتعويله في المفاضلة عليه، ولكان لا يتصور فرق بين أن يقول هذا أبي ومنه نسبي، وبين أن ينسب إلى الطين، الذي هو أصل الخلق أجمعين، ولذلك قال ﷺ: «كلكم لآدم وآدم من التراب»^(٦)، وقال محمد بن الربيع الموصلي:

الناس في صورة التشبيه أكفاء أبوههم آدم والأم حواء
فإن لم يكن لهم في أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
ووزن كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
فهذا كما ترى باب من المعاني التي تجمع فيها النظائر وتذكر الأبيات

(١) قوله معنى صريح... الخ خبر مبتدأ هو قوله: فقلوه * وما الحب الموروث... الخ وما عطف عليه، يعني أن قول الشاعر صاحب البيت الأول في الحب ونظائره كقول الشاعر صاحب البيت الآخرين فيه معنى صريح معقول.

(٢) فيقال عقلي، (ش).

(٣) رواه مسلم من حديث طويل.

(٤) مروى بالمعنى.

(٥) يريد بقوله (الأول) الأب أو الجد مثلاً ممن يفخر بالانتساب إليه.

(٦) من خطبة حجة الوداع.

الدالة عليها فإنها تتلاقى وتتناظر، وتشابه وتتشاكل، ومكانه من العقل ما ظهر لك واستبان، ووضح واستنار، وكذلك قوله:

* وكل امرئ يولي الجميل محب *

صريح معنى ليس للشعر في جوهره وذاته نصيب، وإنما له ما يلبسه من اللفظ، ويكسوه من العبارة وكيفية التأدية، من الاختصار وخلافه، والكشف أو ضده، وأصله قول النبي ﷺ: «جلبت القلوب على حب من أحسن إليها»⁽¹⁾ بل قول الله عز وجل: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34].

وكذا قوله:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ
بسنته، وبه جاءت أوامر الله سبحانه، وعليه جرت الأحكام الشرعية، والسنن
النبوية، وبه استقام لأهل الدين دينهم، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضرهم، إذ
كان موضوع الجبل على أن لا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين، والغواة المعاندين،
الذين لا يعون الحكمة فتردعهم، ولا يتصورون الرشد فيكفهم النصح ويمنعهم،
ولا يحون بنقائص الغي والضلال، وما في الجور والظلم من الضعة والخبال،
فيجدوا لذلك مس ألم يحبسهم على الأمر، ويقف بهم عند الزجر، بل كانوا
كالبهائم والسباع لا يوجههم إلا ما يخرق الأبشار من حد الحديد، وسطو البأس
الشديد، فلو لم تطبع لأمثالهم السيوف، ولم تطلق فيهم الحتوف، لما استقام دين
ولا دنيا، ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتبة العليا، فلا يطيب الشرب من منهل
لم تُنف عنه الأقداء، ولا تقر الروح في بدن لم تدفع عنه الأدواء، وكذلك قوله:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلی مضر كوضع السيف في موضع الندى

(1) من الأحاديث المشتهرة على الألسن بزيادة: «وبغض من أساء إليها». وروى مرفوعاً وموقوفاً عن ابن مسعود، وكلاهما باطل، وقيل: أو الموقوف معروف عن الأعمش.

(القسم التخيلي)

وأما القسم التخيلي فهو الذي لا يمكن أن يقال إنه صدق، وإن ما أثبتته ثابت، وما نفاه منفي، وهو مفتن المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريباً، ولا يحاط به تقيماً وتبويماً، ثم إنه يجيء طبقات، ويأتي على درجات، فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تُلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحدق، حتى أعطي شبهاً من الحق، وغشي رونقاً من الصدق، باحتجاج يخيل، وقياس يُصنع فيه ويُعمل، ومثاله قول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة في قدره؛ وكان الغني كالغيث في حاجة الخلق إليه وعظم نفعه، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم، نزول ذلك السيل عن الطود العظيم، ومعلوم أنه قياس تخيل وإيهام، لا تحصيل وإحكام، فالعلة أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية، أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب، وتمنعه عن الانسياب، وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال.

وأقوى من هذا في أن يظن حقاً وصدقاً وهو على التخیل قوله:

الشيب كرهه وكره أن يفارقني أعجب بشيء على البغضاء مودود

هو من حيث الظاهر صدق وحميعة، لأن الإنسان لا يعجبه أن يدركه الشيب؛ فإذا هو أدركه كره أن يفارقه، فتراه لذلك ينكره ويكرهه، على أن إرادته أن يدوم له، إلا أنك إذا رجعت إلى التحقيق كانت الكراهة والبغضاء لاحقة للشيب على الحقيقة، فأما كونه مراداً ومودوداً فمتخيل فيه وليس بالحق والصدق، بل المودود الحياة والبقاء، إلا أنه لما كانت العادة جارية بأن في زوال رؤية الإنسان للشيب زواله عن الدنيا وخروجه منها، وكان العيش فيها محبباً إلى

النفوس صارت محبته لما لا يبقى له⁽¹⁾ حتى يبقى الشيب كأنها محبة للشيب.

ومن ذلك صنيعهم إذا أرادوا تفضيل شيء أو نقصه، أو مدحه أو ذمه فتعلقوا ببعض ما يشاركه في أوصاف ليست هي سبب الفضيلة والنقيصة، وظواهر أمور لا تصحح ما قصدوه من التهجين والترتين على الحقيقة كما تراه في باب الشيب والشباب كقول البحري:

وبياض البازي أصدق حسناً إن تأملت من سواد الغراب
وليس إذا كان البياض في البازي آنق في العين، وأخلق بالحن من السواد
في الغراب، وجب لذلك كله أن لا يذم الشيب ولا تنفر منه طباع ذوي الألباب،
لأنه ليس الذنب كله لتحول الصبغ وتبدل اللون، ولا أتت الغواني ما أتت من
الصد والإعراض لمجرد البياض، فإنهن يرينه في قباطي مصر فيأنسن⁽²⁾، وفي
أنوار الروض وأوراق النرجس الغض فلا يعجن، فما أنكرن ابيضاض شعر الفتى
لنفس اللون وذاته، بل لذهاب بهجاته، وإدباره في حياته، وإنك لترى الصفرة
الخالصة في أوراق الأشجار المتناثرة عند الخريف وإقبال الشتاء وهبوب الشمال
فتكرهها⁽³⁾ وتنفر منها، وتراها بعينها في إقبال الربيع في الزهر المتفتق، وفيما
ينشئه ويشيه⁽⁴⁾ من الديباج المونق، فتجد نفسك على خلاف تلك القضية،
وتستلئ من الأريحية، ذاك لأنك رأيت اللون حيث النماء والزيادة، والحياة
المستفادة، وحيث أبشرت أرواح الرياحين وبشرت أنواع التحاسين⁽⁵⁾، ورأيت في

(1) أي للحياة التي لا تبقى له إلا إذا بقي الشيب (ش).

(2) القباطي بالضم: جمع قبطية، وهي ثياب من كتان تنسج بمصر نسبة إلى القبط بالكسر، على غير قياس كالدهري والسهلي. وقد تكسر القاف على القياس ويخفف الجمع.

(3) في نسخة الأستانة: فتكرها بدل فتكرهها.

(4) أي وفيما ينشئه الربيع، أي يحدثه من الإنشاء، وهو إيجاد ما فيه نمو وتجدد حقيقة أو صورة، ولك أن تقول: ينشيه بالياء لمناسبة يشيه وهو من الوشي، أي ما يزينه الربيع من الأزهار والنوار الذي يشبه الديباج.

(5) يقال: أبشرت الأرض، إذا أخرجت بشرتها، أي ما ظهر من نباتها. وأما بشر الثلاثي فهو من بشرني فلان أي لقيني، وهو حسن البشر طلق الوجه، والتحاسين: الأشياء الحسنة جمع تحسين، اسم بني على تفعيل، يقال: ما أبدع تحاسين الطاووس وتزايينه (ش).

الوقت الآخر حين ولّت السعود، واقشر العود⁽¹⁾، وذهبت البشاشة والبشر، وجاء العبوس والعسر - هذا ولو عدم البازي فضيلة أنه جارج وأنه من عتيق الطير⁽²⁾ لم تجد لبياضه الحسن الذي تراه، ولم يكن للمحتج به على من ينكر الشيب ويذمه ماتراه من الاستظهار، كما أنه لولا ما يهدي إليك الممك من رياه التي تتطلع إليها الأرواح، وتهش لها النفوس وترتاح، لضعفت حجة المتعلق به في تفضيل الشباب، وكما لم تكن العلة في كراهة الشيب بياضه ولم يكن هو الذي غص عنه الأبصار، ومنحه العيب والإنكار، كذلك لم يحسن سواد الشعر في العيون لكونه سواداً فقط، بل لأنك رأيت رونق الشباب ونضارته، وبهجته وطلاوته، ورأيت بريقه وبصيصه يعدنك الإقبال، ويريانك الاقتبال⁽³⁾، ويحضرانك الثقة بالبقاء، ويبعدان عنك الخوف من الفناء، وإنك لترى الرجل وقد طعن في السن وشعره لم يبيض ولكنه على ذاك قد عدم إبهاجه⁽⁴⁾ الذي كان، وعاد لا يزّين كما زان⁽⁵⁾، وظهر فيه من الكمود والجمود، ما يريكه غير محمود.

وهكذا قوله:

والصارم المصقول أحسنُ حالة يوم الوغى من صارم لم يصقل

[بناء الشعر والخطابة على التخيل لا المعقول]

احتجاج على فضيلة الشيب وأنه أحسن منظراً من جهة التعلق باللون وإشارة إلى أن السواد كالصدأ على صفحة السيف. فكما أن السيف إذا صقل وجلي وأزيل عنه الصدأ ونقي كان أبهى وأحسن، وأعجب إلى الرائي وفي عينه أزين،

(1) أفشر العود أي تخشن وتغير لونه لعدم الري.

(2) العتيق: القديم والكريم، والخيار من كل شيء ولقب البازي.

(3) الاقتبال: استئناف الأمر وتجده. واقتبل الرجل: كاس بعد حماقة، أي صار كياساً بعد أن كان أحمق. وأما الإقبال الذي ذكر قبله فالمراد به إقبال الأرض ومجيئها بالنبات.

(4) أبهجت الأرض: بهج نباتها. أي حسن وراق منظره.

(5) أي لا تظهر فيه زينة كما زان نفسه، أو زان أقرانه أو حبيباته بصحبته أو انتسابهن إليه. (ش).

كذلك يجب أن يكون حكم الشعر في انجلاء صدأ السواد عنه، وظهور بياض الصقال فيه، وقد ترك أن يفكر فيما عدا ذلك من المعاني التي يكره لها الشيب، ويناط بها العيب.

وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أن يجعلوا اجتماع الشئين في وصف علة الحكم يريدونه وإن لم يكن في المعقول، ومقتضيات العقول. ولا يؤخذ الشاعر بأن يصحح كون ما جعله أصلاً وعلة كما ادعاه فيما يبرم أو ينقض من قضية، وأن يأتي على ما صيره قاعدة وأساساً بينة عقلية، بل تسلم مقدمته التي اعتمدها بينة، كتسليمنا أن عائب الشيب لم ينكر منه إلا لونه، وتناسينا سائر المعاني التي لها كره ومن أجلها عيب. وكذلك قول البحراني:

كلفتمونا حدود منطقكم في الشعر يكفي عن صدقه كذبه⁽¹⁾

أراد: كلفتمونا أن نجري مقاييس الشعر على حدود المنطق، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق، حتى لا ندعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به، ويلجئ إلى موجه (مع أن الشعر يكفي فيه التخيل، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل)⁽²⁾ ولا شك أنه إلى هذا النحو قصد، وإياه عمد، إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له، ويبلغه بالصفة حظاً من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله، لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية، والقوانين العقلية، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور واختباره فيما وصف به، والكشف عن قدره وخسته، ورفعته أوضاعه، ومعرفة محله ومرتبته.

(1) قال شيخنا في الدرس أن في البيت رواية أخرى * والشعر يكفي عن صدقه كذبه * والمصراع عليها جملة حالية والشعر مبتدأ خبره يكفي... الخ. وعلى الرواية الأولى «يكفي» جملة حانية وبعد البيت:

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

(2) وجدت هاتين السجعتين بخط شيخنا في حاشية نسخة الدرس وهما ما يحتاج إليه المقام، ومن أسلوب المؤلف، وليستا تفسيراً لشيء كسائر تعليقات (ش) فوضعها في الأصل، وإن لم يصرح شيخنا بأنها منه، وميزتها بالوضع بين هلالين وعلقت عليها هذا التنيه.

[من قال خير الشعر أكذبه وضده]

وكذلك قول من قال: «خير الشعر أكذبه» فهذا مراده لأن الشعر لا يكتب من حيث هو شعر فضلاً ونقصاً وانحطاطاً وارتفاعاً بأن ينحل الوضع من الرفة ما هو منه عار، أو يصف الشريف بنقص وعار، فكم جواد بخّله الشعر وبخيل سخّاه، وشجاع وسمه بالجبن وجبان ساوى به الليث، وذو ضعة أوطأه قمة العيوق⁽¹⁾ وغبي قضى له بالفهم، وطائش ادعى له طبيعة الحكم، ثم لم يعتبر ذلك في الشعر نفسه حيث تنتقد دنائره، وتنشر ديايبجه، ويفتق⁽²⁾ مسكه فيضوع أريجه. وأما من قال في معارضة هذا القول «خير الشعر أصدقه» كما قال:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا
فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب به الفضل، وموعظة تروض جماح الهوى، وتبعث على التقوى، وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال، وقد ينحى بها نحو الصدق في مدح الرجال، كما قيل: كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه. والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشعر. فمن قال «خيرهُ أصدقه» كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح، واعتماد ما يجري من العقل على أصل صحيح، أحب إليه وأثر عنده، إذ كان ثمره أحلى، وأثره أبقي، وفائدته أظهر، وحاصله أكثر، ومن قال «أكذبه» ذهب إلى أن الصنعة إنما يمد باعها، وينشر شعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرع أفنانها، حيث يعتمد الاتساع والتخييل، ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل، وحيث يقصد التلطف والتأويل، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم، والوصف والبث والفخر والمباهاة، وسائر المقاصد والأغراض،

(1) العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها، وقمة الشيء بالكسر أعلاه.

(2) فتق المك: أدخل عليه شيئاً يستخرج به رائحته.

وهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يبدع ويزيد، ويبدىء في اختراع الصور ويعيد، ويصادف مضطرباً كيف شاء واسعاً، ومدداً من المعاني متتابعاً، ويكون كالمغترب من غدير لا ينقطع والمتخرج من معدن لا ينتهي.

وأما القبيل الأول، فهو فيه كالمقصود المداني قيده⁽¹⁾، والذي لا تتسع كيف شاء يده وأيده⁽²⁾؛ ثم هو في الأكثر يورد على السامعين معاني معروفة، وصوراً مشهورة، ويتصرف في أصول هي وإن كانت شريفة فإنها كالجواهر تحفظ أعدادها، ولا يرجي ازديادها؛ وكالأعيان الجامدة التي لا تنمى⁽³⁾ ولا تزيد، ولا تريح ولا تفيد، وكالحناء العقيم، والشجرة الرائعة لا تمتع بجني كريم.

هذا ونحوه يمكن أن يتعلق به في نصرة التخیل وتفضيله، والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه، وتفخيم قدره وتعظيمه، وما كان العقل ناصره، والتحقيق شاهده، فهو العزيز جانبه، والمنيع مناكبه، وقد قيل: الباطل مخصوم وإن قضي له، والحق مفلج وإن قضي عليه⁽⁴⁾، هذا ومن سلم أن المعاني المعركة في الصدق، المستخرجة من معدن الحق، في حكم الجامد الذي لا ينمى، والمحصور الذي لا يزيد، وإن أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر إلى قول أبي فراس:

وكنّا كالسهم إذا أصابت مراميها فراميتها أصابا
ألست تراه عقلياً عريقاً في نسبه، معترفاً بقوة سببه، وهو على ذلك من فوائد أبي فراس التي هو أبو عذرها، والسابق إلى إثارة سرها⁽⁵⁾.

(1) داني القيد: مدانة ضيقه.

(2) الأيد: القوة.

(3) نمى ينمي: گرمى يرمي، أفصح من نما ينمو الواوي ومعناها واحد.

(4) المفلج (اسم فاعل): الفائز الظاهر يقال فلج (كنصر وضرب) وأفلج لازم ويتعدى بعلى يقال فلج وأفلج على خصمه، أي استظهر وانتصر.

(5) يقال (هو أبو عذر هذا الكلام) أي هو أول من اقتضبه واخترعه، ويقال (ما أنت بذوي عذر هذا الكلام) أي لست بأول من اقتضبه. والعذر هنا بالضم مخفف من العذرة وهي البكارة بحذف التاء لجريه مثلاً.

[الاستعارة ليست من التخيل]

واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخيل، لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة، وإنما يعتمد إلى إثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره. وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن، وهي كثيرة في التنزيل على ما لا يخفى، كقوله عز وجل: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4]. ثم لا شبهة في أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال ظاهراً، وإنما المراد إثبات شبهه. وكذلك قول النبي ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن». ليس على إثبات المرآة من حيث الجسم الصقيل، لكن من حيث الشبه المعقول، وهو كونها سبباً للعلم بما لولاها لم يعلم، لأن ذلك العلم طريقه الرؤية، ولا سبيل إلى أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآة، وما جرى مجراها من الأجسام الصقيلة، فقد جمع بين المؤمن والمرآة في صفة معقولة، وهي أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما ترى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه. وكذا قوله ﷺ: «إياكم وخضراء الدمن». معلوم أن ليس القصد إثبات معنى ظاهر اللفظين، ولكن الشبه الحاصل من مجموعهما وذلك حسن الظاهر مع خبث الأصل.

وإذا كان هذا كذلك بأن منه أيضاً أن لك مع لزوم الصدق والثبوت على محض الحق الميدان الفسيح، والمجال الواسع، وأن ليس الأمر على ما ظنه ناصر الإغراق والتخيل الخارج على أن يكون الخبر على خلاف المخبر من أنه إنما يتسع المقال ويفتن، وتكثر موارد الصنعة ويغزر ينبوعها، وتكثر أغصانها وتشعب فروعها، إذا بسط من عنان الدعوى فادعى ما لا يصح دعواه، وأثبت ما ينفيه العقل ويأباه.

وجملة الحديث الذي أريده بالتخيل ههنا ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً، ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويربها ما لا ترى. أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف في أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمراً عقلياً صحيحاً، ويدعي دعوى لها

شبح في العقل. وستمرك ضروب من التخيل هي أظهر أمراً في البعد عن الحقيقة تكشف وجهه في أنه خداع للعقل وضرب من التزييق، فتزداد استبانة الغرض بهذا الفصل، وأزيدك حينئذ إن شاء الله كلاماً في الفرق بين ما يدخل في حيز قولهم: «خير الشعر أكذبه». وبين ما لا يدخل فيه مما يشاركه في أنه اتساع وتجاوز فاعرفه⁽¹⁾.

وكيف دار الأمر فإنهم لم يقولوا: خير الشعر أكذبه وهم يريدون كلاماً غفلاً ساذجاً يكذب فيه صاحبه ويفرط، نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة، ويقول للبائس المسكين: إنك أمير العراقيين، ولكن ما فيه صنعة يتعمل لها، وتدقيق في المعاني يحتاج معه إلى فطنة لطيفة، وفهم ثاقب، وغوص شديد، والله الموفق للصواب.

وأعود إلى ما كنت فيه من الفصل بين المعنى الحقيقي وغير الحقيقي.

واعلم أن ما شأنه التخييل أمره في عظم شجرته إذ تؤمل نسبه، وعرفت شعوبه وشعبه - على ما أشرت إليه قبيل - لا يكاد تجيء فيه قسمة تستوعبه، وتفصيل يستغرقه؛ وإنما الطريق فيه أن يتتبع الشيء بعد الشيء ويجمع ما يحصره الاستقراء. فالذي بدأت به من دعوى أصل وعلة في حكم من الأحكام هما كذلك ما تركت المضايقة، وأخذ بالمسامحة، ونظر إلى الظاهر، ولم ينقر عن السرائر، وهو النمط العدل والنمرقة الوسطى، وهو شيء تراه كثيراً بالآداب والحكم البريئة من الكذب. ومن الأمثلة فيه قول أبي تمام:

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ دى الرزايا إلى ذوي الأحباب
فلهذا يجف بعد اهتزاز قبل روض الوهاد روض الروابي

وكذا قوله يذكر الممدوح قد زاده مع بعده عنه وغيبته في العطايا على الحاضرين عنده اللازمين خدمته:

لزموا مركز الندى وذراه وعَدَّتنا عن مثل ذاك العوادي

(1) إن المصنف قد بسط هذه المسألة في كتاب دلائل الإعجاز.

غير أن الربى إلى سبل الأنواء أدنى والحظ حظ الوهاد

لم يقصد من الربى إلى العلو ولكن إلى الدنو فقط، وكذلك لم يرد بذكر الوهاد الضعة والتسفل والهبوط كما أشار إليه في قوله: * والسيل حرب للمكان العالي * وإنما أراد أن الوهاد ليس لها قرب الربى من فيض الأنواء ثم أنها تتجاوز الربى التي هي دانية قريبة إليها إلى الوهاد التي ليس لها ذلك القرب.

ومن هذا النمط في أنه تخيل شبيهه بالحقيقة لاعتدال أمره وأن ما تعلق به من العلة موجود على ظاهر ما ادعى قوله:

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء ترَجَّى حين تحتجب
فاستتار السماء بالغيم هو سبب رجاء الغيث الذي يعد في مجرى العادة
جوداً منها، ونعمة صادرة عنها، كما قال ابن المعتز:

ما ترى نعمة السماء على الأر ض وشكر الرياض للأمطار
وهذا نوع آخر وهو دعواهم في الوصف هو خلقة في الشيء وطبيعة أو
واجب على الجملة من حيث هو أن ذلك الوصف حصل له من الممدوح ومنه
استفاده. وأصل هذا التشبيه ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد ولهم فيه عبارات منها قولهم:
إن الشمس تستعير منه النور وتستفيده، أو تتعلم منه الإشراق وتكتب منه الإضاءة.
والطف ذلك أن يقال: تسرق وأن نورها مسروق من الممدوح. وكذلك يقال:
المسك يسرق من عرفة، وأن طيبه مسترق منه ومن أخلاقه. قال ابن بابك:

ألا يا رياض الحزن من أبرق الحمى نيمك مسروق ووصفك منتحل
حكيت أبا سعد فنشرك نشره ولكن له صدق الهوى ولك الملل
(ونوع آخر) وهو أن يدعى في الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعله يضعها
الشاعر ويختلقها، إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور
فمن الغريب في ذلك معنى بيت فارسي ترجمته:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق
فهذا ليس من جنس ما مضى، أعني ما أصله التشبيه ثم أريد التناهي في
المبالغة والإغراق والإغراء. ويدخل في هذا الفن قول المتنبي:
لم يحك نائلك المحاب وإنما حُمَّت به فصبيها الرحضاء

[التخيل الشبيه بالحقيقة مما أصله التشبيه]

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث فإنه وضع المعنى وضعاً، وصوره في صورة خرج معها إلى ما لا أصل له في التشبيه، فهو كالواقع بين الضربين. وقريب منه في أن أصله التشبيه ثم باعده بالصنعة في تشبيهه وخلع عنه صورته خلعاً قوله:

وما ربح الرياض لها ولكن كماها دفنهم في الترب طيباً
ومن لطيف هذا النوع قول أبي العباس الضبي:

لا تركزنن إلى الفرا ق وإن سكنت إلى العناق⁽¹⁾
فأشمس عند غروبها تصفر من فرق الفراق

أدعى لتعظيم الفراق أن ما يرى من الصفرة في الشمس حين يرق نورها بدنوها من الأرض⁽²⁾ إنما هو لأنها تفارق الأفق الذي كانت فيه أو الناس الذين طلعت عليهم، وأنسيت بهم وأنسوا بها وسرتهم رؤيتها.

(ونوع آخر) منه قول الآخر:

قضيب الكرم نقطعه فتبكي ولا تبكي وقد قطع الحبيب⁽³⁾

وهو منسوب إلى إنشاد الشبلي⁽⁴⁾ ويقال أيضاً إن أبا العباس أخذ معناه في بيته من قول بعض الصوفية، وقيل له: لِمَ تصفر الشمس عند الغروب فقال: من حذر الفراق.

ومن لطيف هذا الجنس قول الصولي:

- (1) أحفظ الشطر الثاني هكذا: «فإنه مر المذاق».
- (2) أي بحب النظر والكلام كله تخيل لا حقيقة.
- (3) إذا قطع القضيب من الكرم يظل الماء ينقط من حيث قطع وهو ما عبر عنه ببكاء شجرة الكرم، ولعله فيبكي أي القضيب.
- (4) الشبلي هو أبو بكر دلف ابن جحدر من أئمة الصوفية وتلميذ الجنيد، مات سنة 334هـ.

الريح تحبني علي - ك ولم أخلها في العدا
لما هممت بقبلة ردت علي الوجه الردا
وذلك أن الريح إذا كان وجهها نحو الوجه فواجب في طباعها أن ترد الرداء
عليه، وأن تلف من طرفيه، وقد ادعى أن ذلك منها لحدها وغيره لمحجوبه.
وهي من أجل ما في نفسها، تحول بينه وبين أن ينال من وجهها، وفي هذه
الطريقة قوله:

وحاربني فيه ريب الزمان كأن الزمان له عاشق
إلا أنه لم يضع علة ومعلولاً من طريق النص على شيء بل أثبت محاربة من
الزمان في معنى الحبيب ثم جعل دليلاً عليها جواز أن يكون شريكاً في عشقه. وإذا
حققنا لم يجب لأجل أن جعل العشق علة للمحاربة وجمع بين الزمان والريح في
ادعاء العداوة لهما أن يتناسب البيتان من طريق الخصوص والتفصيل. وذاك أن
الكلام في وضع الشاعر للأمر الواجب علة غير معقول كونها علة لذلك الأمر.
وكون العشق علة للمعاداة في المحبوب معقول معروف غير بدع ولا منكر. فإذا بدأ
فادعى أن الزمان يعاديه ويحاربه فيه فقد أعطاك أن ذلك لمثل هذه العلة. وليس إذا
ردت الريح الرداء فقد وجب أن يكون لذلك لعل الحسد أو غيرها، لأن رد الرداء
شأنها فاعرفه، فإن من حكم المحصل أن لا ينظر في تلاقي المعاني وتناظرها إلى
جمل الأمور، وإلى الإطلاق والعموم، بل ينبغي أن يدقق النظر في ذلك ويراعي
التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل. فأنت في نحو بيت ابن وهيب - وحاربني
الخ - تدعي صفة غير ثابتة إذا هي ثبتت اقتضت مثل العلة التي ذكرها. وفي نحو
بيت الريح تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ثم تدعي لها علة من عند نفسك
وضعاً واختراعاً. وهكذا قول المتنبي:

ملامي النوى في ظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذي بي من المقم
فلو لم تغر لم تزو عني لقاكم ولو لم ترد كم لم تكن فيكم خصمي

الدعوى في إثبات الخصومة وجعل النوى كالشيء الذي يعقل ويميز ويريد
ويختار، وحديث الغيرة والمشاركة في هوى الحبيب يثبت بثبوت ذلك من غير أن

يفتقر منك إلى وضع واختراع.

ومما يلحق بالفن الذي بدأت به قوله:

بنفسي ما يشكوه من راح طرفه ونرجسه مما دها حنه ورد⁽¹⁾
أراقت دمي عمداً محاسن وجهه فأضحى وفي عينه آثاره تبدو
لأنه قد أتى بحمرة العين وهي تعرض لها من حيث هي عين معلقة، وأتى
بإراقة الدم في صورة العلة، وهو يعلم أنها مخترعة موضوعة فليس ثم إراقة دم.
وأصل هذا قول ابن المعتز:

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت والدم في النصل شاهد عجب⁽²⁾

وبين هذا الجنس وبين نحو «الريح تحسدني» فرق، وذلك أن لك هناك فعلاً
هو ثابت واجب في الريح وهو رد الرداء على الوجه، ثم أحببت أن تتطرق
فأدعيت لذلك الفعل علة من عند نفسك. وأما ههنا فنظرت إلى صفة موجودة
فتأولت فيها أنها صارت إلى العين من غيرها وليست هي من شأنها أن تكون في
العين، فليس معك هنا إلا معنى واحد. وأما هناك فعندك معنيان أحدهما موجود
معلوم، والآخر مدعى موهوم، فاعرفه.

ومما يشبه هذا الفن الذي هو تأول في الصفة فقط من غير أن يكون معلول

(1) الواو في (ونرجسه) للحال يريد الذي صار نرجس طرفه كالورد من الرمد.

(2) أحفظ المصراع الثاني من البيت الأول:

* من كثرة الفتك نالها وصب *

وكلمة (الفتك) أطرف وأبلغ من كلمة القتل - ومن البيت الثاني بإبدال كلمة السيف
بكلمة النصل. وفي معناهما:

قالوا الحبيب شكا جعلت فداءه رمداً أضر بعينه كالعندم

فأجبتهم ما زال يفتك لحظه في مهجتي حتى تلطخ بالدم

قال صاحب (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار): وقد قلت أحسن من هذا وهو:

لا تنكروا الحمرة في طرف من ينفك بالطرف دماء البشر

ولا الإنكار من أنفس أرضية سالت بعين القمر

وعلة ما تراه من تأولهم في الأمراض والحميات أنها ليست بأمراض ولكنها فطن
ثاقبة وأذهان متوقدة وعزمات كقوله:

وحوشيت أن تضرى بجسمك علة إلا أنها تلك العزوم الشواقب
وقال ابن بابك:

فترت وما وجدت أبا العلاء سوى فرط التوقد والذكاء
ولكشاجم بقوله في علي بن سليمان الأخفش:

ولقد أخطأ قوم زعموا أنها من فضل برد في العضب
هو ذاك الذهن أذكى ناره والمزاج المفرط الحر ألهب
ولا يكون قول المتنبي:

ومنازل الحمى الجسم فقل لنا ما عذرها في تركها خيراتها
أعجبت شرفاً فطال وقوفها لتأمل الأعضاء لا لأذاتها

من هذا في شيء بأكثر من أن كلا القولين في ذكر الحمى وفي تطيب
النفس عنها، فهو اشتراك في العرض والجنس فأما في عمود المعنى وصورته
الخاصة فلا، لأن المتنبي لم ينكر أن ما يجده الممدوح حمى كما أنكره الآخر
ولكنه كأنه سأل نفسه: كيف اجترأت الحمى على الممدوح مع جلالة وهيبته؟
أم كيف جاز أن يقصد شيء إلى أذاه مع كرمه ونبله؟ وأن المحبة من النفوس
مقصورة عليه؟ فتمحل لذلك جواباً، ووضع للحمى فيما فعلته من الأذى عذراً،
وهو تصريح ما اقتصر فيه على التعجب في قوله:

أيدي ما أرابك من يريب وهل ترقى إلى الفلك الخطوب⁽¹⁾
وجسمك فوق همة كل داء فقرب أقلها منه عجيب

(1) قاله المتنبي في دمل أصيب به سيف الدولة. وأرابه الشيء: أحدث به ما يوجب القلق
والريبة في العاقبة والذي أرابه: الدمل. «ومن يريب» استفهام وضمير يريب يعود إلى ما
أرابك.

إلا أن ذلك الإيهام، أحسن من هذا البيان، وذلك التعجب موقوفاً غير مجاب، أولى بالإعجاب، وليس كل زيادة تفلح، وكل استقصاء يملح.

ومن واضح هذا النوع وجيده قول ابن المعتز:

صدت سرير وأزمنت هجري وصفت ضمائرهما إلى الغدر⁽¹⁾
 قالت كبرت وشبت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر
 ألا تراه أنكر أن يكون الذي بدأ به شيباً، ورأى الاعتصام بالجحد أخصر طريقاً إلى نفي العيب وقطع الخصومة، ولم يملك الطريقة العامة فيثبت المشيب، ثم بمنع العائب أن يعيب، ويريه الخطأ في عيبه به، ويلزمه المناقضة في مذهبه، كنحو ما مضى أعني كقول البحري: «وبياض البازي» وهكذا إذا تأولوا في الشيب أنه ليس ببيضاض الشعر الكائن في مجرى العادة وموضوع الخلقة، ولكنه نور العقل والأدب قد انتشر، وبان من وجهه وظهر، كقول الطائي الكبير:
 ولا يروءك إيماض القتير به فإن ذاك ابتسام الرأي والأدب⁽²⁾

[براعة ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد]

وينبغي أن باب التشبيهات قد حَظِي من هذه الطريقة بضرب من الحر لا تأتي الصفة على غرابته، ولا يبلغ البيان كنه ما ناله من اللطف والظرف، فإنه قد بلغ حداً يَبْزُ المعروف في طباع الغزل، ويلهي الثكلان، وينث في عُقْد الوحشة، وينشد ما ضل عنك من المسرة، ويشهد للشعر بما يطيل لسانه في الفخر، ويبين جملة ما للبيان من القدرة والقدرة، فمن ذلك قول ابن الرومي:

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلاً توردها عليه شاهد
 لم يُخجل الورد المورد لونه إلا وناحله الفضيلة عاند⁽³⁾

(1) في نسخ الديوان التي بأيدينا «سرير» بالمعجمة.

(2) القتير: الشيب وقيل أول ما يظهر منه.

(3) عاند من عند (كنصر وضرب) إذا مال عن الطريق أو خالف الحق وأنكره.

للنرجس الفضل المبين وإن أبى
فصل القضية أن هذا قائد
شتان بين اثنين هذا موعِد
ينهي النديم عن القبيح بلحظه
اطلب بعقلك في الملاح سميهِ
والورد إن فكرت فرد في اسمه
هذي النجوم هي التي ربتهمَا
فانظر إلى الأخوين من أدناهما
أين الخدود من العيون نفاسة
وترتيب الصنعة في القطعة أنه عمل أولاً على قلب طرفي التشبيه كما مضى
في فصل التشبهات، فشه حمرة الورد بحمرة الخجل، ثم تناسى ذلك وخدع عنه
نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة، ثم لما اطمأن ذلك في قلبه
واستحكمت صورته، طلب لذلك الخجل علة فجعل علته أن فُضِّل على النرجس
ووضع في منزلة ليس يرى نفسه أهلاً لها، فصار يثوب⁽²⁾ من ذلك ويتخوف عيب
العائب وغمزة المستهزئ، ويجد ما يجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها،
ويفرط حتى تصير كالهزء بمن قصد بها. ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع المثمر في
سحر البيان، ما رأيت من وضع حجاج في شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل
على الورد فجاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له.

ومما هو خليق أن يوضع في منزلة هذه القطعة، ويلحق بها في لطف
الصنعة، قول أبي هلال العسكري:

(1) يقال: تلبت المرأة إذا لبست السلاب وهي بالكسر: ثياب الحداد السود، والبيت بمعنى
ما قبله، والمراد أن النرجس المفضل عنده يظهر في أول الربيع فتتلوه الأزهار
والرياحين، والورد المفضول يظهر في آخر الربيع فيتوعد الرياحين سلب بهجتها حيث
يذهب في أثره زهر الرياض فالنرجس كالقائد والورد كالطارد. وابن الرومي مشهور بزم
الورد وتفضيل النرجس.

(2) يثوب: يرجع إلى نفسه.

زعم البنفسج أنه كعذاره حسناً فَسَلُّوا من قفاه لسانه
لم يظلموا في الحكم إذ مثلوا به فلشد ما رفع البنفسج شأنه⁽¹⁾

وقد اتفق للمتأخرين من المحدثين في هذا الفن نكت ولطف وبدع وظرائف
لا يتكرر لها الكثير من الثناء، ولا يضيق مكانها من الفضل عن سعة الإطراء،
فمن ذلك قول ابن نباتة في صفة الفرس:

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مثيا ويطوي خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشكَّ الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا
وأحسن من هذا وأحكم صنعة قوله في قطعة أخرى:

فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه وخاض في أحشائه
وأول القطعة⁽²⁾:

قد جاءنا الطرف الذي أهديته هاديه يعقد أرضه بسمائه⁽³⁾
أولاية وليتنا فبعثته رمحاً سبب العرف عقد لوائه⁽⁴⁾
نختال منه على أغرَّ محجل ماء الدياجي قطرة من مائه⁽⁵⁾

(1) مثل به من باب نصر أي: نكل به.

(2) القطعتان في فرس أدهم أغر محجل حمله عليه سيف الدولة جعل غرته أثر لظمة من الصباح في جبينه وتحجيلة من خوض قوائمه الأربع في أحشاء الصباح. وقد ترك المصنف البيت الأول وهو:

يا أيها الملك الذي أخلاقه من خلقه ورواؤه من رائه
أي أخلاقه مخلوقة له ورواؤه ومنظرة من رأيه. وبعبارة أخرى هو في خلقه وحُلُّقه كأنه كَوَّن نفسه وخلقها كما يرى ويحب من الكمال.

(3) الطرف الكريم بالكسر: من الخيل والكريم الأطراف من الآباء والأمهات والهادي: العنق يغلو في وصفه بالطول.

(4) العرف: شعر رقبة الفرس الذي ينبت في محدها. والبيب: الخصلة من الشعر. شبهه على عنقه الطويل بالراية على الرمح.

(5) في نسختي الكتاب (نخل) وفي نسخة من الديوان (نختال) وهي أظهر.

فكأنما لطم الصباح جبينه فاققص منه وخاض في أحشائه
متمهلاً والبرق من أسمائه متبرقعاً والحسن من أكفائه
ما كانت النيران تُكمن حرها لو كان للنيران بعض ذكائه
لا تعلق الألحاح في أعطافه إلا إذا كفكت من غُلوائه
لا يكمل الطرف المحاسن كلها حتى يكون الطرف من أسرائه⁽¹⁾

ومما له في هذا التفضيل الفضل الظاهر لحسن الإبداع مع السلامة من التكلف قوله:

وماء على الرضراض يجري⁽²⁾
كأن بها من شدة الجري جنة وقد ألبستهن الرياح سلاسل
وإنما ساعده التوفيق، من حيث وُطئ له من قبل الطريق، فسبق العرف
بتشبيه الحبك على صفحات الغدران بحلق الدروع، فتدرج من ذلك إلى أن جعلها
سلاسل كما فعل ابن المعتز في قوله:
وأنهار ماء كالسلاسل فجرت لترضع أولاد الرياحين والزهر
ثم أتم الحذق بأن جعل للماء صفة تقتضي أن يسلل وقرب مأخذ ما
حاول عليه، فإن شدة الحركة وفراط سرعتها من صفات الجنون كما أن التمهّل
فيها والتأني من أوصاف العقل.

(1) كنت في الطبعة الأولى ضبطت «الطرف» الأول من المبيت بالكسر، والثاني بالفتح بمعنى أن الجواد الكريم لا تكمل محاسنه حتى يأسر طرف الناظر إليه، فلا يستطيع أن يتحول عنه، وقد عكس شيخنا الضبط في نسخة الدرس فضبط الأول بالفتح والثاني بالكسر ولم يظهر لي جعل الجواد أسيراً للطرف كعكسه فتأمل.

(2) هكذا وجدنا البيت في النختين محرفاً ناقصاً وقد أتمه شيخنا في الدرس بقوله:
وماء على الرضراض يجري كأنه أفاع عراها الذعر تطلب موثلاً
وكتب بإزائه في حاشية نسخه: أتممت البيت على هذا الوجه ويغلب على ظني أن التمهّل
في معنى ما يريد الشاعر، وعلى من وقف على البيت كلامه أن يفيدنا بما وجد.
والرضراض: ما دق من الحصى. قال:
يبدوله الداء الخفي كما بدا للعين رضراض الغدير الصافي

ومن هذا الجنس قول ابن المعتز في السيف في أبيات قالها في الموفق وهي:

وفارس أغمد في جُنة يقطع السيف إذا ما ورد⁽¹⁾
كأنه ماء عليه جرى حتى إذا ما غاب فيه جمد
في كفه عضب إذا هزه حسبته من خوفه يرتعد
فقد أراد أن يخترع لهزة السيف علة، فجعلها رعدة تناله من خوف الممدوح وهيته. ويشبه أن يكون ابن بابك نظر إلى هذا البيت وعلق منه الرعدة في قوله:

فإن عجمتني نيوب الخطوب وأوهى الزمان قوى مُنتي⁽²⁾
فما اضطرب السيف من خيفة ولا أرعد الرمح من قرة⁽³⁾
إلا أنه ذهب بها في أسلوب آخر، وقصد إلى أن يقول: إن كون حركات الرمح في ظاهر حركة المرتعد، لا يوجب أن يكون ذلك من ألم عارض، وكأنه عكس القضية فأبى أن تكون صفة المرتعد في الرمح للعلل التي لمثلها تكون في الحيوان، وأما ابن المعتز فحقق كونها في السيف على حقيقة العلة التي لها تكون في الحيوان فاعرفه، وقد أعاد هذا الارتعاد على الجملة التي وصفت لك فقال:

(1) الجنة بالضم: كل ما وقى من سلاح. يصف فارساً اشتمل عليه الحديد وعمته الدروع فإذا ورد عليه السيف قطعه فلا ينفذ فيه (ش) وجعله لفظ الجنة خاصاً بالسلاح يريد به الحقيقة وقد استعمل في غيرها مجازاً.

(2) عجمه (كنصر): عضه ليختبر صلابته. والنيوب جمع ناب. والمنة كالقوة وزناً ومعنى وكذا الضعف، فهي من الأضداد، وكأنه أراد ضروب القوة وأنواعها. وأصل القوة: الطاقة الواحدة من الجبل وجمعها قوى على القياس قال شيخنا: هنا كأن القوة جبل ذو طاقات وقوى. وكان المناسب لفظاً أن يقول: كأن المنة الخ.

(3) القرّة بالكسر: ما يأخذ المرء من البرد. وأرعد بضم الهمزة وارتعد: أصابته الرعدة وهي بالفتح والكر للهيئة الرجفة والاضطراب.

[من قال خير الشعر أكذبه وضده]

قالوا طواه حزنه فأنحني فقلت والشك عدو اليقين
ما هيف النرجس من صبوة⁽¹⁾ ولا الضنى في صفرة الياسمين
ولا ارتعاد السيف من قرة ولا انعطاف الرمح من فرط لين

ومما حقه أن يكون طرازاً في هذا النوع قول البحتري:

يتعثرون في النحور وفي الأوج جه سكرأ لما شربن الدماء⁽²⁾
جعل فعل الطاعن بالرمح تعثراً منها كما جعل ابن المعتز تحريكه لليف
وهزه له ارتعاداً، ثم طلب للتعثر علة كما طلب هو للارتعاد فاعرفه.

ومن هذا الباب قول علبة:

وكان السماء صاهرت الأبر ض فصار النشار من كافور⁽³⁾
وقول أبي تمام:

كان السحاب الغر غيبن تحتها حبيباً فما ترقى لهن مدامع
وقال السري يصف الهلال:

جاءك شهر السرور شوال وغال شهر الصيام مغتال
ثم قال:

كأنه قيد فضة حرج فُضَّ عن الصائمين فاختلفوا
كل واحد من هؤلاء خدع نفسه عن التشبيه وغالطها وأوهم أن الذي جرى
العرف بأن يؤخذ منه الشبه قد حضر، وحصل بحضرتهم على الحقيقة ولم يقتصر

(1) هيف كيبس وهاف كخاف هيفاً بالفتح وبالتحريك: ضمر بطنه ورقت خاصرته فهو أهيف وهي هيفاء.

(2) قوله لما شربن... الخ فيه وجهان كسر اللام وتخفيف الميم على أن ما مصدرية والمعنى لشربهن الدماء - وفتح اللام وتشديد الميم على أن لما حينية. قاله (ش).

(3) المراد بالنشار هنا الثلج كما قال (ش).

على دعوى حصوله حتى يصيب له علة وأقام عليه شاهداً، فأثبت علة زفافاً بين السماء والأرض، وجعل أبو تمام للسحاب حبيباً قد غيب في التراب. وادّعى السريّ أن الصائمين كانوا في قيد وأنه كان حرجاً فلما فض عنهم انكسر بنصفين أو اتسع فصار على شكل الهلال. والفرق بين بيت السري وبيتي الطائيين أن تشبيه الثلج بالكافور معتاد عامي جار على الألسن، وجعل القطر الذي ينزل من السحاب دموعاً ووصف السحاب والسماء بأنها تبكي كذلك، فأما تشبيه الهلال بالقيد فغير معتاد نفسه إلا أن نظيره معتاد ومعناه من حيث الصورة موجود. وأعني بالنظير ما مضى من تشبيه الهلال بالسوار المنفصم كما قال:

حَاكِياً نَصَفَ سَوَارٍ مِنْ نَضَارٍ يَتَوَقَّدُ
وَكَمَا قَالَ السَّريّ نَفْسَهُ:

وَلَا حَ لَنَا الْهَلَالَ كَشَطَرِ طَوْقٍ عَلَى لَبَاتِ زَرْقَاءِ اللَّبَاسِ
إِلَّا أَنَّهُ سَاذَجٌ لَا تَعْلِيلَ فِيهِ يَجِبُ مِنْ أَجْلِهِ أَنْ يَكُونَ سَوَاراً وَطَوْقاً فَاعْرِفْهُ.

ورأيت بعضهم ذكر بيت السري الذي هو: «كأنه قيد فضة حرج» مع أبيات شعر جمعه إليها وأنشد قطعة ابن الحجاج:

يَا صَاحِبَ الْبَيْتِ الَّذِي قَدِمَاتُ فِيهِ الصَّيْفُ جَوْعَا
مَالِي أَرَى فَلَكَ الرِّغْيَ فَلَذِيكَ مُشْتَرَفٌ رَفِيعاً⁽¹⁾
كَالْبَدْرِ لَا نَرْجُو إِلَى وَقْتِ الْمَسَاءِ لَهُ طُلُوعَا
قَالَ إِنَّهُ شَبَّ الرِّغْيَ بِالْبَدْرِ لَعَلَّتَيْنِ إِحْدَاهُمَا الْاسْتِدَارَةَ وَالثَّانِي طُلُوعَهُ مَسَاءً
قَالَ: وَخَيْرُ التَّشْبِيهِ مَا جَمَعَ مَعْنَيْنِ كَقَوْلِ ابْنِ الرُّومِيِّ:

يَا ثَبِيهِ الْبَدْرِ فِي الْحِمْ مِنْ وَفِي بَعْدِ الْمُنَالِ
جُدْ فَقَدْ تَنَفَّجَرَ الصَّ خَرَّةً بِالْمَاءِ الزَّلَالِ

(1) الفلك من كل شيء: مستداره ومعظمه فقد يطلق بجانب الرغيف بلا تشبيه والمشترف فاعل من اشترف: إذا انتصب والفرس كان مُشْرِفُ الخلق (ش) ولكن الشاعر قصد التشبيه وهو محل الشاهد.

وأنشد أيضاً لأبراهيم بن المهدي:

ورحمت أفراخاً كأفراخ القطا وحنين والهة كقوس النازع
ثم قال: ومثله قول السريّ * كأنه قيد فضة حرج * وهو لا يشبه ما ذكره
إلا أن يذهب إلى حديث أنه أفاد شكل الهلال بالقيد المفضوض ولونه بالفضة،
فأما إن قصد النكتة التي هي موضع الإغراب فلا يستقيم الجمع بينه وبين ما أنشد
لأن شيئاً من تلك الأبيات لا يتضمن تعليلاً، وليس فيها أكثر من ضم شبه إلى
شبه كالحنين والانحناء من القوس، والاستدارة والطلوع مساء من البدر، وليس
أحد المعنيين بعلة للآخر، كيف ولا حاجة بواحد من الشبهين المذكورين إلى
تصحيح غيره له.

ومما هو نظير لبيت السري وعلى طريقه قول ابن المعتز:

سقاني وقد سُلَّ سيف الصبا ح والليل من خوفه قد هرب
لم يقنع ههنا بالتشبيه الظاهر والقول المرسل كما اقتصر في قوله:
حتى بدا الصباح من نقاب كما بدا المنصل من قراب
وقوله:

أما الظلام فحين رق قميصه وأتى بياض الصبح كالسيف الصدى
ولكنه أحب أن يحقق دعواه أن هناك سيفاً مسلولاً، ويجعل نفسه كأنها لا
تعلم أن ههنا تشبيهاً، وأن القصد إلى لون البياض في الشكل المستطيل فتوصل
إلى ذلك بأن جعل الظلام كالعدو المنهزم الذي سل السيف في قفاه فهو يهرب
مخافة أن يضرب به.

ومثل هذا في أن جعل الليل يخاف الصبح لا في الصنعة التي أنا في
سياقها قوله:

سبقنا إليها الصبح وهو مقنع كمين وقلب الليل منه على حذر
وقد أخذ الخالدي بيته الأول أخذاً فقال:

والصبح قد جردت صوارمه والليل قد هم منه بالهرب
وهذه قطعة لابن المعتز بيت منها هو المقصود:

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت مثل البغي تتوجت لزناة
جاءتك زائرة كعام أول وتلبست وتعطرت بنبات
وإذا تعرى الصبح من كافوره نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر نرجس قذيت وأذن حيها بممات⁽¹⁾

هذا البيت الأخير هو المراد، وذلك أن الضحك في الورد وكل ريحان
ونور يتفتح مشهور معروف، وقد قاله في هذا البيت وجعل الورد كأنه يعقل ويميز
فهو يشمت بالنرجس لانقضاء مدته، وإبار دولته، وبدو أمارات الفناء فيه، وأعاد
هذا الضحك من الورد فقال:

ضحك الورد في قفا المنشور واسترحنا من رعدة المقرور⁽²⁾
أراد إقبال الصيف وحر الهواء ألا تراه قال بعده:

واستطبنا المقييل في برد ظل وثمرنا الريحان بالكافور⁽³⁾
فالرحيل الرحيل يا عسكر الد ذات عن كل روضة وغدير

[الفصل بين المعنى الحقيقي والتخييل]

فهذا من شأن الورد الذي عابه به ابن الرومي في قوله:

فصل القضية إن هذا قائد زهر الرياض وإن هب الطارد
وقد جعله ابن المعتز لهذا الطرد ضاحكاً ضحك من استولى وظفر، وابتز

(1) قذيت: دخل فيها القذى: شبه النرجس أدركه الجفاف والتصوح بالعيون يصيبها القذى.

(2) الرعدة بالكسر: النافض أي الاضطراب من نحو برد وخوف، والمقرور: من أصابه القر
«البرد» على غير قياس.

(3) أراد أنه استبدل الورق الأخضر بالزهر الأبيض لأن وقت الزهر قد انقضى، فالباء في
الكافور للبدل (ش).

غيره ولاية الزمان واستبد بها.

ومما يشوب الضحك فيه شيء من التعليل قوله أيضاً:

مات الهوى مني وضاع شبابي وقضيت من لذاته آرابي
وإذا أردت تصابيا في مجلس فالشيب يضحك بي مع الأحباب
لا شك أن لهذا الضحك زيادة معنى على الضحك في نحو قول دِعل
[الخزاعي]:

* ضحك المشيب برأسه فبكى *

وما تلك الزيادة إلا أنه جعل المثير يضحك ضحك المتعجب من تعاطي
الرجل ما لا يليق به، وتكلفه الشيء ليس هو من أهله، وفي ذلك ما ذكرت من
إخفاء صورة التشبيه، وأخذ النفس يتناسيه، وهكذا قوله:

لما رأونا في خميس يلتهب في شارق يضحك من غير عجب⁽¹⁾
كأنه صب على الأرض ذهب وقد بدت أسيافنا في القرب
حتى تكون لمناياهم سبب نرقل في الحديد والأرض تجب⁽²⁾
وحن شريان ونبع فاصطخب تترسوا من القتال بالهرب⁽³⁾

المقصود قوله «يضحك من غير عجب» وذاك أن نفيه العلة إشارة إلى أنه من
جنس ما يعلل، وأنه ضحك قطعاً وحقيقة. ألا ترى أنك لو رجعت إلى صريح
التشبيه فقلت: هيئته في تلالؤه كهيئة الضاحك ثم قلت: من غير عجب - قلت
قولاً غير مقبول. واعلم أنك إن عدت قول بعض العرب:

ونشرة تهزأ بالنصال كأن فيها حدق الهلال
الهلال الحية ههنا واللام للجنس في هذا القبيل - لم يكن لك ذلك.

(1) الشارق: الشمس والجانب الشرقي من الجبل وغيره وهو خلاف الغارب.

(2) تجب وجيباً: تخفق.

(3) الشريان والنبع نوعان من الشجر تصنع منهما القسي. وحنّ القضيبي: صوّت عند ليّه. ويقال: قوس حنّانة.